الهوية اللغوية الجزائرية بين رهانات البحث اللساني والتنوع الجغرافي

Algerian Linguistic Identity Between The Bets Of Linguistic Research And Geographical Diversity

زهرة بوضروة

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف (الجزائر)

البريد الإليكتروني boudherouazahra22@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/05/13 تاريخ القبول: 2019/06/26 تاريخ النشر: 2019/09/21

ملخص:

نتج الوجود العربي الإسلامي منذ القدم في المغرب العربي عموما والجزائري خصوصا عن جملة من المتغيرات والمستجدات التي طرأت على الوضع اللغوي على سكان المنطقة، فبعد أن قوبل الفاتحون بمقاومة حامية الوطيس واستتبع ذلك النص الذي كان حليفهم فعملوا على تعريب المجتمع المغربي فتعايش الأمازيغ إلى جانب العرب في شمال إفريقيا وأسسوا دويلات إسلامية، كان اللسان العربي هو الجامع بين مختلف أطيافها واتسعت رقعة الممارسات العربية بتوسع حركات الفتوحات الإسلامية التي ضمت تحت جنباتها عدة لهجات تمثل انتماءات سكان المنطقة وتدخل هذه الدراسة في إطار ما يعرف بعلم اللسان الجغرافي وعلم اللهجات، وبين الصراع والتعايش اللغوي سنحاول معالجة هذا الموضوع بمختلف تجلياته وتداعياته في هذه الصفحة البحثية

الكلمات المفتاحية:

الهوية؛ المغرب العربي؛ الأمازيغ؛ البحث اللساني؛ التنوع الجغرافي.

***ABSTRACT* :**

The intersection of Arab and Islamic presence since ancient times in the Arab Maghreb in general and the Algerian in particular with a number of changes and developments in the language situation on the population of the region. After the conquerors met with fierce resistance and followed the text that was their ally, they worked to Arabize the Moroccan society and Amazigh coexistence with the Arabs in North Africa and founded the Islamic states, was in the Arabic tongue is the whole between the various spectrum and expanded the practice of Arab expansion of the movements of the conquests of Islam, which included several dialects under the denominations belonging to the population of the region and enter this study in the framework of what is known as the science of Sanyat geography and dialects, and between conflict and linguistic coexistence, we will try to address this subject with its various manifestations and implications on this research page

***Keywords*:**

Identity; Arab Maghreb; Amazigh; Linguistic Search; Geographical Diversity

إنّ الإحساس بالتباينات اللغوية لدى العرب من الملاحظات التقديرية مشكوك فيها، فهي راسخة بين أوساط المتخاطبين من العرب، وواضحة المعالم من خلال العشرات من المصطلحات والأوصاف اللسانية وتمس جميع المستويات التي تشترك في التواصل الخطابي بين مختلف المواقع والطبقات والجهات والأفراد الذين يجسدون هذه الاختلافات النطقية والتنوعات اللهجية "إن الحقول الخاصة بهذا الميدان لم تحدد نفسها تحديدا واضحا على الأقل خلال المراحل الأولى التي ظهرت فيها كعلم مستقل له منظروه ونظرياته ،وإلا اعتبرنا المناهج التي كان الهنود والإغريق ثم العرب يستخدمونها أو يعاملون بها اللغة المحكية مفردتا

ونصوصا لا تبتعد عمليا وعلميا كثيرا عن هذا المسمى المعروف بـdialectologie"[1]، وهذا الشعور الواعي واللاوعي بهذه الفوارق اللغوية نجده على مستوى الممارسة الكلامية أو من خلال ما نقف عليه محفوظا في شتى المدونات، قد نعثر عليه مبثوثا في مختلف التداولات اللغوية من أمثال وحكم مثلما نصادفه في أشعارهم وأجناسهم النثرية متمثلا في ممارسة كلامية شفوية و حتى كتابية.

وقد أثيرت هذه المسألة وطَرحت إشكالات جوهرية منذ العصر الجاهلي خطابا ومشافهة ولم يحسم الأمر فيها إلى عصرنا ولا تزال تخلق الكثير من الجدل والنقاش[2] فالوضع الحالي هو الذي جعل الأمر ينحو نحو التراجع، وهذا بدءا من مماطلة السلطة ولا مبالاة النخبة[3]، وفي العصر العلمي اللاحق اهتمت المعاجم العربية بدراسة الموضوع فكرا وممارسة ميدانية قديمها وحديثها واهتمت بدراسة مصطلح "اللغة" وما يندرج ضمنها من مشتقات ومصطلحات مقاربة ولم تعن هذه المعاجم بتحديد الفرق بينها وبين اللهجة، كما تطلق اللهجات "على مجموعة الصفات اللغوية: الصوتية والنحوية والدلالية، تنتمي إلى بيئة جغرافية أو اجتماعية معينة من بيئة أشمل تضم عدة لهجات تجمعها عناصر لغة مشتركة ويتكلم أهل هذه البيئة او البيئات الأوسع والأشمل لغة واحدة مشتركة"[4]، وقد عرف العرب اللسانيات الجغرافية قبل أن يعرفوا علم اللهجات، واهتمت بعض الكتب غير اللغوية قديمها وحديثها-كمقدمة ابن خلدون ومشكلة الثقافة لمالك بن نبي والآثار لمحمد البشير الإبراهيمي ومحمد عاطف غيث قاموس علم الاجتماع ...الخ- اهتماما واضحا بهذه الظاهرة واعتبرتها أحيانا جزءا جوهريا من خطتها ومنهج دراستها، وهناك كتب جمعت بين اللغة والأدب مثل الكامل للمبرد والبيان والتبيين للجاحظ ....الخ وغيرهما كثير ،وقياسا على الجهود اللغوية العربية سنبحث في الموضوع من خلال تصفح التراث اللغوي الجزائري، فما علاقة علم اللغة بعلم اللهجات وكيف تتوزع هذه اللهجات على مستوى الإطار الجغرافي، وفق أي منطق ووفق أي منهجية؟ وما مجال عمل اللسانيات الجغرافية الجزائرية تحديدا؟

الهوية اللغوية:

لا يزال البحث في هذه المسألة مفتوحا والطرح فيها ساخنا بالرغم من أن الشعوب المتقدمة أغلقت باب النقاش في هذه المسألة، وطويت مباحثها لكن بالنسبة للشعوب العربية لا يزال البحث فيها متأخرا والحديث فيها يخلق الكثير من الحساسيات ويثوّر النعرات ويؤلب العصبيات والقبليات، وتجنبا لهذا وذاك سنعمل على إثارة هذه النقطة من أجل إزالة اللبس عن خصائص الهوية اللغوية التي ترتبط ارتباطا وثيقا بالمشاعر الوطنية والانتماءات التي تشترك فيها الجماعة البشرية التي تتحرك ضمن إطار جغرافي عقائدي معين ،فالجزائر "تواجه في المرحلة الحالية، رهانات وتحديات كبرى ترتبط بالبناء الوطني للدولة الجزائرية ،و يتمثل ذلك في التنمية الاقتصادية والسياسية والثقافية. ولعل من أبرز المسائل التي تشغل المجتمع الجزائري، نذكر منها القضايا اللغوية والثقافية التي تحدد الهوية و الانتماء وهي قضايا لاتزال تثير الجدل الفكري والسياسي وربما لمدة قد تطول ولأكثر من سبب"[5]، التي تتحرك ضمن إطار جغرافي أو فكري أو عقائدي معين، ويشير لفظ واصطلاح الهوية اللغوية في معناه العام إلى مفهوم الذاتية المرتبطة بخصائص

معينة تتوافر عليها المجتمعات البشرية التي تنضوي تحت لواء عام مشترك يوحد بينها في المشاعر والأهداف والمقاصد والعادات والتقاليد والمعتقدات والسلوكيات والقيم...الخ، وقد تترتب ضمن ما يعرف بالطوائف أو الأقليات أو حتى مجتمع بأكمله تحكمه الخصائص والعقليات نفسها بما فيها اللغة المشتركة أو المتفرعة عن اللغة المشتركة كحالنا في الأقاليم العربية التي توحدها اللغة العربية الفصحى وتتفرع عنها لهجات وعاميات إلى جانب مجموع القيم والمثل والمبادئ التي تشكل الأساس الراسخ للشخصية الفردية أو الجماعية "إن القدم الجزائرية لراسخة في التاريخ البشري الحضاري المتمثل في السلوك اللساني، والطبائع والعوائد، والطقوس والفنون، وغيرها من مظاهر التحضر والتمدن المتمثل أيضا في أحوال المعاش من زراعة ورعي وصيد وتجارة وحرف وصنائع وغيرها من العناصر الفاعلة التي تسمح للإنسان بالعيش في كنف المدنية، كل هذه العوامل تزيد في مؤشر الهوية الجزائرية وتعزز حظها في الكيان الجزائري، فيستشرف مستقبلا واضح المعالم من ماضٍ عريقٍ وحاضر متمسك بماضيه"[6].

وإذا عدنا إلى الجذر اللغوي للاصطلاح نجده مشتق من الضمير "هو" فيختصر السؤال التالي: من هو فلان؟ اصطلاح الهوية، وينظم تحت هذا المسمى مجموعة من المحددات التي تشكل هوية الفرد من صفات شكلية ومعنوية تتعلق بشخصه وخصاله ولغته وانتماءه وفرادته،...الخ، وهو بذلك يحقق مجموعة من السمات التي تميزه عن غيره وهو ما يعرف بالهوية التي يعرّفها بعض الباحثين على أنها مجموعة الخصائص والمميزات التي ينفرد بها فرد أو شعب أو أمّة بأكملها والتي تُتَوارث عن ماضٍ عريقٍ وتراثٍ مجيد بما في ذلك التراث من لغة ودين وبما تحمله هذه الأمة من انتصارات وانتكاسات وطموحات وانتماءات وخصائص، تجعل من ينتمي إليها ذا تركيبة متميزة، وتكمن هوية الفرد في عقيدته وجنسه وأرضه ولغته وثقافته وحضارته وتاريخه والروح المعنوية والجوهر الأصيل للكيان الوطني والمصالح المشتركة.

إن البحث في جذور هويتنا الوطنية (الجزائرية) يعود في إطارها الإقليمي إلى الهوية المغاربية التي تعود في أصولها إلى ما يزيد عن ثلاثة آلاف سنة، وهي الفترة الأمازيغية الموسومة بـ: عهد المماليك البربر، وعرفت هاته الفترة ازدهارا وانتكاسا وتعد فترة الفتح الإسلامي أزهى هذه المراحل التي اختصرت عقودا من الظلم والهوان فأعلنوا "بعض الثورات والصدود ضد الظلم و الاحتقار، والذود عن النفس، باعتبارهم نبلاء لا يقبلون الذل، وهذا منذ أن سامهم عقبة بن نافع الفهري بعض معاملات الذل ومعاملات عبد الله المرادي الدنيئة إضافة إلى بعض الإهانات التي ألحقها بعض المسلمين بالمواطنين، كما ثاروا ضد موسى بن نضير لأنه كان عنيفا يحب الغنائم، ورفضوا سياسة يزيد بن عبد الملك الذي امتلأت خزائنه، وأهل المغرب والأندلس يموتون جوعا، كما رفضوا بعض ممارسات بعض الولاة الظالمين في المنطقة ونعلم أن العرب استأثروا بالأندلس الذي فتحه البربر" [7]،"كما عمل عبد الرحمان الداخل على توطيد أسس الإمارة الاموية بالأندلس على أساس العصبية القبلية بتقريب عشيرته وأبناء قبيلته كما فعل الخليفة عثمان بن عفان وأمويون في المشرق واستأثر بالثروات"[8]، تشكلت وفقها أقطاب الهوية الوطنية (الأرض، الحضارة، اللغة، الدين...الخ)، وتعتبر عناصر جامعة مانعة غير قابلة للتطعيم والتداخل الذي قد يصيب باقي المحددات لأنها من الثوابت

التي لا تلاعب فيها، حيث يقول سيليريهcelerier"بواسطة اللغة والمؤسسات الاجتماعية يمثل العالم البربري وحدة حقيقية روحية ولكن الجانب المادي يؤدي إلى تقطع هذه الوشائج ويحل محلها الصراع القبلي وتضارب المصالح المادية"[9].

ولما جاء الفتح الإسلامي لمنطقة شمال إفريقيا أرسى مبادئ الصلح والتآلف ودعا إلى وحدة الأديان تحت راية الإسلام وأكد أن أبناء البشر إخوة مهما اختلفت نحلهم ومللهم وألسنتهم ويرجعون إلى أصل واحد فكلهم أبناء آدم وآدم من تراب وما الهدف من تباعد البشر جغرافيا أو عقائديا أو ألسنيا إلا من أجل غاية أسمى ذكرت في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾"[10]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾"[11]، ومن أجل ذلك سرت اللغة العربية في أبناء مازيغ سير النار في الهشيم، فقد اقتضى الدخول في الإسلام فهم هذا الدين الجديد الذي نزل بلسان عربي مبين حتى قيل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فتجاورت هذه اللغة وتساكنت مع الأمازيغية دون أن تقصيها ولا تزال إلى يومنا هذا تعيش جنبا إلى جنب مع اللغة العربية حتى أقرها السيد رئيس الجمهورية عبد العزيز بوتفليقة لغة رسمية ثانية بعد اللغة العربية بتاريخ 8-5-2002.

إن مسألة الهوية اللغوية لا تعني إلغاء الخصوصيات التي تقرها الأعراف اللسانية فهو حق مشروع من حقوق التنوع الثقافي داخل الحيز الجغرافي الواحد، بحيث يتشكل مجموع الثقافات بما فيها من تنوع وتباين وتأثير متبادل جزءا من التراث الذي يعد ملكية جماعية لجميع أبناء البشر (التراث العالمي)، ولا يعني هذا السماح لنمط لساني معين بالتسيّد على لسان المجموعة البشرية، بدعوى حقوق الإنسان اللغوية أو الحق في التنوع الثقافي، فالتنوع أمر مشروع ومرغوب فيه داخل الوحدة الثقافية، إلا أن امتلاك لسانين رسميين قد يخلق البعض من المشاكل ويفتح المجال أمام نشاط الحركات الانفصالية والحكم المحلي أو الكونفدرالي[12].

وبالنسبة لوضعها في المغرب العربي، فهي لغة رضي بها الأجداد طوعا وتعلموها منذ عهد عقبة بن نافع "وقد استعرب البربر خلال القرن2هـ-8م،وكانت بعض الأجيال دون شك كافية لتفقدهم لغتهم الوطنية تماما وقد عوضوه دون مشاكل باللسان العربي وفي نفس الوقت الرومانس، ويحتمل أن لا يبقى أحد ممن يتكلم اللهجة البربرية في الأندلس انطلاقا من القرن التاسع الميلادي، لا نجد أي إشارة تفند هذه الفرضية التي دعمها، بالعكس الغياب التام أو الشبه التام لأسماء أماكن بربرية باستثناء أسماء القبائل نفسها ضمن مجموعة أسماء الأماكن في الأندلس"[13] وأنتج تعليمها مجتمعا أمازيغيا عربيا إسلاميا ممتدا نحو خمسة عشر قرنا، تعايش فيه الأمازيغ إلى جانب المسلمين الفاتحين دون الشعور بالدونية أو الفوقية، فقد وحّد الإسلام بينهم قلبا وقالبا، كما أسهموا في نقل هذه الثقافة الجديدة أو الحضارة الجديدة بما تحمله من مكونات إلى الأندلس، ولم تكن الجزائر بمنأى عن هذه التطورات من بين دول المغرب العربي "فقد عرفت الجزائر سلسلة الأسر التي انحدرت من أصول غير عربية مثل: المرابطين والموحدين وهي من أقوى الدول التي يفتخر تاريخ

المغرب بها ويعتز بها، فلم يلجأ حكامها إلى التوغل في الوضع اللغوي بفرض سياسة مخالفة لما كان معروفا وسائدا في جل أقطار العالم الإسلامي"[14]

وإذا كان قبول اللغة العربية من قبل الأجداد والأهالي طوعا، فنحن في هذا الموقع لا نقف موقف المتسائل، لفعل الأجداد، فلقد قبلوها بعد كفاح مرير ضد الفاتحين تتقدمهم في ذلك الكاهنة، ثم عكفوا بعد أن قبلوها على نشرها، وجَدُّوا في ذلك وجدوا في كثير من قواعدها، وكان لهم فضل أن أسبغوا عليها أنماطا لم تكن تعرف بها قبل وصولها إلى الشمال الإفريقي، وقد لاقت هذه اللغة رواجا وإقبالا منقطع النظير بتوافد السكان الأصليين على الدين الجديد، فشكلت بذلك هويتنا الجديدة وأضحت امتدادا في الزمان والمكان، ولم تكن وافدا غريبا اقتحم علينا ديارنا فسلب عقولنا وقلوبنا رغم أنوفنا، فلا إكراه في الدين والإنسان ضمن هذا القالب مخير، فشكلت هذه اللغة بعضًا منّا يرافقنا منذ البدايات الأولى لطفولتنا ويتدرج معنا إلى أن تستقر ألفاظها ومعانيها في أذهاننا، حتى أضحت مقوما من مقومات وجودنا الإنساني" وهذا الارتباط العضوي بين العرب والمسلمين وبين اللغة العربية وهو ما جعل الدكتور المسدي يربط أيضا بين الخسران الحضاري وبين خسران اللغة"[15]، وصار لِزامًا علينا في الوقت الحالي بما تشهده الأمة من شتات أن نتخلص من عقد الماضي الفرقة والتشتت والتقطب، بتطهير الأمة من رواسب الاستعمار ودسائسه والعقد النفسية التي خلفها الاستعمار في نفوس أبناء هذا الوطن الواحد، بتكريس وتثبيت دعائم هويتنا اللغوية التي هي حصيلة تفاعل ثلاثة عناصر: الأرض، الدين، اللغة، كقاسم مشترك يربط بين مختلف أقطار العالم الإسلامي"إن اللغة تشكل العنصر الاساس في الثقافة ترتبط بالفرد ومجتمعه وهي التي تحدد هويته وهوية مجتمعه وهي الموجهة لتفاعلاتها المحددة لرؤاها، لذلك فإن قيم المواطنة وثيقة الصلة بلغة الأم التي يكتسبها ويتواصل بها ويتشرب معانيها فتزوده بمختلف القيم الإنسانية الصحيحة التي تشعره بالأمن القومي"[16]، ولا تكتمل خصائصها وشروطها وملامحها ولا تتجسد أصالتها إلا بوصفها ضمن سياقها الحقيقي كما يوضح ذلك الإمام الصنهاجي ابن باديس الذي يقول منشدا:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب

أو رام إدماجا له رام المحال من الطلب[17]

ويقصد بالعروبة اللسان العربي وهو يتعالى عن السلالات، ولم ينكر الجزائريون قط أصولهم الأمازيغية التي أثبتها التاريخ، وإن هذا المورد التاريخي الذي لا يقبل التجزئة ولا يقع في التناقض المصطنع يعبر عن نظرة علمية عميقة للظرف الراهن ويمكّن من بناء وحدة وطنية قوية قائمة على التنوع وتقر بها" لا يخرج التعدد اللغوي في جوهره عن كونه ظاهرة طبيعية نابعة من متطلبات المجتمع المتطلع إلى المعرفة وتتميز بها كل أمّة عن أخرى تميزا جذريا ولا ضير أن يتخذ التعدد اللغوي مسلك التطعيم وانفتاح الثقافة الوطنية على الثقافات الأجنبية لتوسيع دائرة التفكير اللغوي بما يخدم اللغة العربية" [18] ومن هنا يبدو جليا" أن التعدد

اللغوي مسلك حضاري من مسالك الانفتاح الثقافي على الثقافات الأجنبية شرط أن يكون في خدمة اللغة الوطنية، ولا يسلك مسلكا إيديولوجيا سياسيا، الهدف منه تقسيم المجتمع وتفكيكه، وأن يصل بهذا التعدد إلى أقصى أشكال التوحيد والتماسك والتلاحم بين أفراد الأمة دون تفريط في الخصوصيات الثقافية لكل طائفة"[19]، وهذا ما عمل آباؤنا على توطيد أواصره من خلال فهم الأنا في تفاعلها مع الآخر، وعمّقوا رؤيتهم للواقع ووسعوا مطامعهم ومطامحهم لتحتوي الوطن العربي والعالم الإسلامي بأسره من خلال تخليهم عن أنانيتهم وفهمهم الضيق لحدود الهوية المقترنة بالدم والعرق والإقليم الجغرافي"، وكانت اللغة إحدى أسباب السيادة فعملوا على ترسيخها وعكفوا على دراستها وتعميقها وتبويبها وتطويرها لتنال الحظوة وتتربع على عرش اللغات، فكان من ذلك أن اتخذت عدة سبل في طريق تمكينها وفرضها على اعتبار أن:

-اللغة العربية عنصر أساس، ومكوّن ضروري وحيوي من مكونات الشعب الجزائري.

-مكونات الشعب الجزائري ملخصة في شعار الجزائر وطننا، الإسلام ديننا، واللغة العربية لغتنا.

-اللغة العربية مرتكز العبادة والعقيدة والعلم والفكر والثقافة والحكم.

الصراع اللغوي:

لم يكن دخول الفاتحين المسلمين والعرب إلى شمال إفريقيا مرحبا به، فقد قوبلوا بمقاومة شديدة من قبل الكاهنة وصمدت لسنوات رافضة الحكم العربي، وواجه جيش عقبة بن نافع الملك البربري كسيلة على رأس البربر الأمازيغ وارتد البرابرة اثنتي عشرة مرة حسب رواية ابن خلدون، واستقروا في عهد "موسى بن نصير" على الإسلام وحدث الانصهار والاندماج الحضاري والثقافي فتعرّب الأمازيغ وتمزّغ العرب في مراحل متعاقبة بداية مع الفتح الإسلامي إلى هجرات بني هلال وبني سليم في القرن الحادي عشر، وأخيرا اضطهاد العرب المسلمين وطردهم من الأندلس عقب سقوط غرناطة عام 1492م، إثر صدور مرسوم 1502م، وارتدّت بعض القبائل العربية -التي دخلت الجزائر- عن الإسلام وانقلب الوضع وصار الأمازيغ دعاة للإسلام عن طريق الأئمة والتجار الذين عملوا على بناء المعالم المادية والحضارة الإسلامية، لنشر هذا الدين والدعوة إليه.

ولم يذكر التاريخ لنا مع ذلك أنه حصل صراع لغوي عقب دخول الفاتحين لأرض شمال إفريقيا، فقد استقبل وقبل سكان المنطقة بالدين الجديد واعتنقوه في ظرف قياسي، وقد راوح عدد الجنود الفاتحين العشرة آلاف، عاد منهم تسعة آلاف وبقي الألف فهل يرجع فضل أسلمة وتعريب السكان الأصليين لهذه الألف المتبقية؟

تذكر المصادر التاريخية أن مسألة تعريب بني مازيغ ترجع إلى دولة المرابطين والموحدين، وأنجزت على الشكل النهائي على يد القبائل الهلالية وقبائل بن سليم وبتطويع من الأهالي الذين استسلموا للأمر الواقع طوعا، "فحتمية التعريب ولّدتها الظروف التاريخية والسيرورة الاجتماعية لمجتمع المغرب العربي عامة والجزائر خاصة، ولم تكن المسألة فردية ولا حتى إرادة جماعية"[20].

ومن ثم عمل أبناء مازيغ على نشر اللغة العربية والتقعيد لها وحملوا شعار بالأمازيغية نبقى وبالعربية نرقى فكانت اللغة العربية عامل توحيد بين القبائل وظلّت الأمازيغية تحتفظ بطابعها التراثي وبموقعها الفاعل ضمن أشواط التاريخ" وما التداعيات المتناسلة العاملة على إثارة الفتن إلا فقاعات يجب أن يعلم بها الجميع، وفي ذات الوقت لا لتهميش الأمازيغية ولا لسحق الثقافة الوطنية باسم العروبة و الإسلام وباسم الحضارة الفرنسية،...وهذا ما يمكننا من الانتقال من التماسك الاجتماعي الوطني فلا يحتاج الجزائري لأن يصطحب معه مترجما وهو يتواجد في تيزي وزو أو تبسة أو تيارت أو تلمسان كما أننا في غنى عن حروب اللغات"[21]، ويفتخر التاريخ الأمازيغي بانتساب كل من القديس أوغسطين وابن خلدون إلى هذا الأصل، أضِف إلى ذلك بعض الأسماء التي جلجلت بحضورها الأمة وصنعت أمجاد مازيغ من أمثال: طارق بن زياد وعباس بن فرناس وابن بطوطة والوغليسي والمشدالي والديسي وابن شنب والشرفاوي....وغيرهم كثير، الذين كانوا صنعة التلاحم الأخوي البربري العربي الذي حصل بينهم انسجام ثقافي حضاري لم يلغِ كلا الهويتين "حيث ألغى الإسلام كل ما هو عصبي أو شعوبي، فهذب كلمة البربر في أنها تطلق على سكان شمال إفريقيا وهم لا يقلون شأنا عن الآخرين، وهذا أحد الأسباب التي جعلت المازيغيين يقبلون بهذا الدين الذي لم يجعلهم في الدرك الأسفل من التصنيف مثل ما فعل الرومان، فلا فضل لعربي على أحد من الخلق إلا بالتقوى، ومع هذا فقد كثرت حولها الآراء وتباينت من حيث دلالتها اللغوية [22].

ولم يطرح الصدام بين الأصلين إلا مع دخول الاستعمار الفرنسي الذي حارب الوجودين معًا وعمل على إقصائهما من التاريخ ومحو آثارهما من الاستعمال والأداء والوظيفة" ومن المفيد التذكير أيضا أن الجزائر عرفت استعمارا مدمرا لكيانها الاجتماعي والاقتصادي والثقافي واللغوي، وقدم الشعب الجزائري التضحيات الجسام في سبيل استعادة سيادته السياسية وهويته الوطنية وسعت الحكومات المتعاقبة منذ الحصول على الاستقلال إلى الآن لترميم وإعادة بناء ما تم تدميره من قبل الاستعمار وعلى جميع المستويات"[23] فبقرار من الحاكم الفرنسي منذ سنة 1899م تمّ إغلاق الكتاتيب القرآنية وتدمير المساجد وتحويل الكثير منها إلى كنائس ومصادرة الصحف وملاحقة القائمين عليها من أجل منع الحركات التنويرية من الظهور وأداء مهامها المنوطة بها، في إطارهم ضمّ الكيان والوجود الجزائري إلى الكيان الاستعماري وإسقاط المعالم المكوّنة للشخصية العربية الإسلامية وقد ظهرت هذه السياسة في ثمانيات القرن الماضي فصارت اللغة العربية لغة دخيلة عند البعض ممن تمّ إدماجهم واعتبروها اللغة الثانية بعد الفرنسية من خلال الحملات الترويجية التي كان الاستعمار الفرنسي يحاصر بها انتماءاتنا التي حملت مشروع التشكيك بين الأهالي حول الأصول، والتي قادت إلى بربرية هوجاء لا تزال معالمها بادية لوقتنا هذا، بالرغم من أن التاريخ يثبت لهم هذه الخصلة التي تقر بأنهم شعوب وأجناس وأعراف وديانات متباينة، فهل من مذكر؟

لم يقف الإسلام موقفا معاديا اتجاه الاستعمالات اللغوية والألسنية بالعكس تماما فمن تعلم لغة قوم أمن شرّهم، هذا هو منطق الدين الإسلامي في التعامل مع الأحداث والطوارئ، فقد تعايشت الأمازيغية مع العربية بمختلف لهجاتها جنبا إلى جنب طوال قرون من الزمن، كما أن الوجود الجزائري لم يلغِ اللغة

الفرنسية بعد الاستقلال وجعلها لغة رسمية ثانية بعد اللغة العربية، فلا ينكر مُنكر أن هذه اللغة لغة علم وأن لها باعا طويلا في علوم شتى كالطب والسياسة والسياحة، وإنما كان الصراع قائما حول موقع السيادة لمن هو أحق؟ وجاء التعريب كمسألة رد فعل حول التغريب الذي انتهك شرعية اللغة العربية وحقها في التواجد كلغة وطنية رسمية لا ينازعها في ذلك منازع وهذا من الحقوق اللغوية التي تظفر بها كل اللّغات الطبيعية، كما نازعت إلى جانب اللغة العربية الأمازيغية التي تحتفظ بحقها الشرعي في أن تنال مكانتها التاريخية كلغة وطنية تبحث عن إعادة الاعتبار لوجودها وتراثها لتخرج من الشفاهية إلى المدّون.

التكامل اللغوي:

إن أسلافنا عملوا جاهدين ومثابرين على تكريس دواعي الوحدة ولمّ الشمل حول ثوابت ومعالم وطنية راسخة انطلاقا من مكونات ومقومات الشخصانية بالرغم من المنعطفات التاريخية الحاسمة والصعبة التي كانت تضع هذه المكونات دائما تحت الضغط والاختبار وتجر الوحدة الوطنية نحو المصائر المجهولة، فاعتبروا وحدة اللغة من وحدة الفكر والمصير ونالت اللغة العربية مكانتها الريادية والفاعلة والراقية كونها مرتبطة بالوحي وماضينا وتراثنا المشترك فهي لغة دين وتعليم.

عمّرت اللغة العربية إلى جانب اللّهجة الأمازيغية نحو ما يربو عن خمسة عشرة قرنا بعد أن حلّت محل اللغة اللاتينية التي قضت على الكتابة الليبية، وعملت الدويلات التي استوطنت بجاية وتلمسان على تكريس اللغة العربية وترسيمها، ولم يضيقوا على الأمازيغية واحتفظوا بها في الاستعمالات الوظيفية الحيوية لإدارة شؤون مستعمليها، ولم يعكر صفوها النعرات الشعوبية ولم تظفر في إثارة الشكوك حولها ولم تفلح في زرع البلبلة والانقسامات في صفوف الوحدة الوطنية، إضافة إلى أن اللّهجات ليست ملكية خاصة بل هي ملك جماعي لجميع الناطقين بها وتعد ثروة لسانية تراثية متعددة الأوجه والمصادر، ومصدر دراسات لغوية ولسانية ثرية تكشف عن الكثير من الأسرار ونضرب لها مثلا عن بعض الأغاني التراثية لآيت منقلات لمنطقة تيزي وزو أو أغاني حدّاد فاتح في البويرة أو أغاني صليحة في العاصمة ومدائح خليفي أحمد في منطقة الجلفة، وأغاني عيسى الجرموني في منطقة الشرق الجزائري أو العيساوية في الغرب الجزائري وأغاني عثمان بالي الصحراوية وراي خالد الوهراني،...الخ، كلها تعكس تراثا لغويا متنوعا وغنيا من البويرة إلى المدية ومن عنابة إلى باتنة ومن بسكرة إلى مغنية ومن ورقلة إلى غرداية، فهي تشكّل تناغما تامّا كاملا متكاملا في سلسلة مشتركة تنبئ عن مكونات هذا الشعب المشتركة، وتكوّن رصيدا لهجيا معرفيا مشتركا، ينبغي السعي لترقيته والمحافظة على مكتسباته وكسب رهاناته الجوهرية والمستقبلية بغية النهوض بهذه الأمّة والحفاظ على وحدتها وجوامعها وإثراء ثقافتها والوقوف على شؤونها ورعايتها وإقصاء كلّ ما يشوّه صورتنا الحضارية من رواسب الدّونية والعصبية وتفعيل مختلف التّوجهات الثّقافية عن طريق تنشيط المجتمع في مختلف هيئاته رغبة في الحفاظ على جوهر وجودنا ودعائم هويتنا اللّغوية.

علم اللهجات (Dialectolagie) أو اللّسانيات الجغرافية:

تتعدد مصطلحات هذا المجال البحثي اللّساني وتشهد تذبذبا يمس المصطلح والمنهج والمفهوم، فبين علم اللهجات واللسانيات الجغرافية والأطلس اللغوي يحتار الباحث في اختيار الأنسب منها والأدق، ويرجع عبد الجليل مرتاض السبب إلى عجز التراث اللساني العربي عن النضج من أجل استيعاب مختلف المفاهيم المتعلقة به والتي تمكّنه من التّمييز والتّفرقة بين اللّهجة من جهة وعلم اللّهجات من جهة ثانية، ومن جهة أخرى فإن الدّرس اللّساني العربي المعاصر يفتقر إلى النّموذج اللّساني الذي يستند إليه كذلك الذي لدى العرب القدماء أو ذلك المتوفر لدى الغربي المعاصر.

إن هذا العلم الذي صار قائما بذاته وفرعا عن العلوم الإنسانية يعتبر من أكثر العلوم احتياجا إلى علوم أخرى مساندة كعلم الاجتماع اللّساني، علم النّفس اللّساني، علم الإحصاء والخرائط، والجغرافيا...الخ، وصار في أيامنا هذه ممكنا التّمييز بين الحقول الخاصة بكل من العلمين: اللسانيات الجغرافية والدياكتولوجيا (علم اللهجات) بالرغم من التداخل الحاصل بينهما، وصار لكل علم مصطلحاته ومفاهيمه وحقوله الدلالية الخاصة به، وعليه يصبح مجال دراسة اللسانيات الجغرافية هو كل ما يعثر عليه في أي فضاء من تواصلات لسانية يمكن نقل وتسجيل وقائعها المتكونة من كلّ الأنظمة والأصناف على خرائط تمثل مواقع جغرافية، بينما الدياكتولوجيا (علم اللّهجات) من جهتها تفهم على أنها:

-مثل دراسة مقارنة الأنظمة تمثل محليا كل لغة.

-من النادر وصف التكلمات المحلية دون الإحالة على التكلمات المجاورة لها.

-وإذا كان بعض الدراسين يتحفظ في المزج بين اللسانيات الجغرافية والدياكتولوجيا والفصل بينهما في آن على الرغم من محاولة هؤلاء الجادة في التفاضل والتمييز بينهما منهجيا، فإن دي سوسير لا يتردد في تسمية هذا الحقل باللسانيات الجغرافية، ويعالج تحت هذا المصطلح في أجزاء أربعة من كتابه[24] العناصر التالية:

-تنوع اللغات :

فما يلفت النظر في هذا الحقل اللساني بالنسبة لدى سوسير في دراسة اللّغة إنما يكمن في تنوعها، إلى جانب ما يسميه بالفوارق اللغوية المتحركة، وهي تلك التي تنتقل من بلد إلى آخر ومن مقاطعة إلى أخرى، وكلمة idiome (لغة) باعتبارها انعكاسا للسّمات الخاصة لطائفة ما، سرعان ما تتلاشى أمام اعتقاد المرء أن اللّغة صفة الجنس لا للأمّة كما هو لون الجلد أو الشعر، وحسب هذه الرؤية المنغلقة فإن كل طائفة تعتقد بتفوق لغتها وفي حالة ما إذا تكلم فرد منها لغة غير لغتها فإنها تعتبره عاجزا لا إراديا عن الكلام أو متمردا على قوانينها الداخلية التي تحكم الجماعة اللّغوية.

-تعاصر لغات عديدة في موقع واحد:

يرى دي سوسير أنه بقدر ما يوجد من مناطق توجد لغات متميزة، ويبقى الفصل الجغرافي العامل الأكثر شمولا في التنوعات الكلامية الجغرافية، وبشأن اللغة الأدبية والمحلية التي يدرجها تحت ما أسماه "مضاعفات التنوع الجغرافي" يقول "إننا لا نعني باللغة الأدبية لغة الآداب وحسب بل كل ضروب اللغة المتقنة بمعنى عام رسمية كانت أولا، وذلك خدمة للمجموعة برمتها..."[25].

-بواعث التّنوع الجغرافي:

ولأن اللّغة كائن حي يخضع لنواميس التطور فإن فعل الزمن وأثره مستديم، بحيث أن لغة واحدة بعد برهة من الزمن لا تعود مشابهة لنفسها، وأن اللّهجات الإقليمية ليست لها حدود طبيعية، أي بقدر التعدد والتحول في الأمكنة تتعدد اللهجات، التي ليست في الحقيقة سوى تقسيمات فرعية اعتباطية للمساحة اللغوية الكلية، وإذا كان ولا بد من حد فاصل بين لغتين، فلا يمكن أن يتم ذلك إلا اعتباطيا.[26]

فمفهوم اللهجة الطبيعية لا يتفق مبدئيا مع فكرة الإقليم، فنحن أمام أمرين، إما أن تحدد لكل لهجة صفاتها، وإما أن تحدد كل لهجة بإحدى صفاتها. ويشير دي سوسير إلى انتشار الموجات اللسانية المستوحاة من نظرية "جوهان شيمدث" Johan Smedethالمعروفة بنظرية الأمواج des ondes théorie والتي تنتشر وفق قوتين في اتجاهين متعاكسين، فمن جهة نزعة انتماء الفرد إلى عصبية قبلية أو طائفية أو مجتمع بعينه بكل مكوناته ومقوماته الأساسية من دين، لغة، تاريخ، ثقافة، عادات وتقاليد...الخ، ومن جهة ثانية قوة العلاقات الاجتماعية التي تفرض على المجتمعات التواصل والتعارف تحقيقا للتعايش بين بني البشر.

هذا من جهة ومن جهة ثانية تعرف اللسانيات الجغرافية géolinguistique على أنها "الدراسة لكل المتغيرات variations المرتبطة بتأصيل مستعملين اللغة نفسه اجتماعية وفضائية "[27]

وهذا التعريف في الحقيقة لا يلم بمختلف جوانب الموضوع ولا يحيط بالإشكالية بما تقتضيه من حقائق علمية، ذلك لأن أهم التصورات الأساسية التي يعالجها هذا الحقل تتلخص في ما يلي:

1- Jdiolecte اللهجة الفردية.
2- Dialect ou Patois لهجة أو لهجة إقليمية أو محلية.
3- Langue Nationale لغة وطنية.
4- Jargon أرغة أو أرطانة.
5- Mélanges de Langues لغات مترجمة.
6- Multi Linguisme تعدد اللغات.

ومعنى هذا أن الديالكتولوجيا (علم اللهجات) علم أعم من اللسانيات الجغرافية وأنه هو الذي دعا إلى إقامة أطالس لسانية، وقد ألّح النقاد الجدد على ضرورة هذه الدراسة من أجل إعادة متابعة التطور اللساني بالتجزئة، وتتبع الجذور والأصول اللسانية بمختلف الألسنة واللهجات، إضافة إلى أن معظم المصادر

لم تتطرق إلى الفصل بين الاستعماليين كما هو الحال لدى "جورج مونان"George Monin الذي جعل كل منهما مرادفا للآخر معبرا عن ذلك بقوله: "الدراسة المقارنة لمجموعة من اللهجات التي تغطي فضاءا لسانيا، هذا الحقل يسمى أيضا لسانيات جغرافية، ونتائج هذه الأبحاث يمكن أن تودع في أطلس لساني"[28]

إن تاريخ اللسانيات الجغرافية يرجع أول ظهوره إلى ظهور أول أطلس في ألمانيا ألا وهو أطلس وينكيرwenker والأطلس اللساني في فرنسا من قبل إيدموند إدموند Edmund Edmund و جيلجيليرون Gil Gillarard 1902-1910 ولا يتردد الباحثون في استعمال المصطلحين معه تحت مسمى "اللغة في الزمن والفضاء"، ومع ذلك فإنهم يتميزون جيدا، بين المصطلحين، هذا وقد تطرق أندريه مارتينيAndre Martini في مؤلفه الشهير "éléments de linginstique générale lesles" عناصر اللسانيات العامة- تبعا لما تمليه عليه مقتضيات النزعة الفرنسية- إلى جملة الأصناف المتصلة بعلم اللهجات من دون أن يشير إلى الفرق من العلمين فبالنسبة إليه من هذه التواصلات ترجع في أصولها إلى الممارسات اللسانية.

هذا وقد أشار بيرتيل betil إلى أن بعض اللهجات الشعبية لا تزال تحتفظ بالعديد من السمات القديمة التي يمكن من خلالها إلقاء الضوء على تاريخ اللغات الرسمية فالعديد من المفردات الصوتية والمعاني المبعثرة والضائعة من اللغة الأم (اللغة المركزية) ظلّت عالقة في الاستعمالات اللهجية، وهذه المعرفة بالنسبة لبيرتيل مهمة من أجل الوقوف على تاريخ اللغة أو الاشتقاق l'etymologie وهو مالم ينتبه له لسانيو القرن 19م، وبناءا على هذا يصبح علم اللهجات هو الوريث الشرعي للسانيات التاريخية.

التعدد اللهجي:

إن البحث في تاريخ اللغة العربية واللهجات المتفرعة عنها مسألة عسيرة ينبغي لدارسها أن يكون على إطلاع واسع بالمراحل والحقب التاريخية والأشواط التي قطعتها اللغة العربية وهي تسير نحو التطور والتجدد أو التراجع والانكماش، والحقيقة بالأدلة والإثباتات يكشف الوضع والتراث اللغوي إلى اندثار بعضها على مر الزمن، وهي الملاحظة التي وقف عليها عثمان سعدي ممثلا عن الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية، تفرعت عنها لهجات لانعدام الوسيلة الفعالة والناجعة لحفظ اللغة الأم كما هو شأن العدنانية التي نزل بها القرآن الكريم (لغة قريش) وتولى الله سبحانه وتعالى حفظها ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[29]،وليس معنى هذا أن العدنانية التي استمرت مدة خمسة عشر قرنا لم تتطور، إنها تتطور لكن في ذاتها، فلغة الصحيفة العربية في القرن الواحد والعشرين ليست لغة امرئ القيس والشنفرى بنفس بالدّقة، لكن لو بُعث امرؤ القيس وقرأ هذه الصحيفة لفهمها، وهذا هو إعجاز اللغة العربية، كان الديبلوماسيون الغربيون يتملكهم العجب عندما يشاهدون الديبلوماسيين العرب الممثلين لعشرين دولة يتكلمون لغة واحدة بلا ترجمان، وهذه الظاهرة اللغوية بالوطن العربي لم ولا يوجد لها مثيل بالعالم"[30]

وكتعقيب على القول فإن فهم امرئ القيس لصحيفتنا قد يكون عسيرا عليه- إلا إذا استعان بمعين لا سيما واختراق لغتنا المعاصرة لقواعد التركيب والدلالة وشيوع الأخطاء في تراكيبنا وألفاظنا واستحداث بعض

المفردات التي لم تكن موجودة أو توظيف الدخيل منها-بنفس الصعوبة التي يمكن أن يتعرض لها قارئ المتون الجاهلية القديمة إلا إذا استند على معين أو شارح كالقواميس والمعاجم لسعة القاموس اللغوي آنذاك وصعوبة مفرداته واستعصائها على الفهم.

إن إفرادنا للعامية بالدرس لا يلغي موقع الفصحى في التواصل الإنساني ولا يحل محلها، بل إن دراستها كظاهرة مشتقة عن الفصحى ومتجاورة معها ولصيقة بها، مختلفة عنها في الإعراب والنطق والاستعمال، شجّع على تداولها مختلف الفضائيات العربية، وهو ما يخلق بَونا بين الأفراد الناطقين بنفس اللسان ويصّعب من مسألة التواصل بينهم"...ذلك التأثير الخطير لوسائل الإعلام على الثقافة والفكر، فيذهب التحليل الوظيفي إلى أن الإعلام والاتصال يثريان ثقافة المجتمع وتنوعها بالمعلومات الجديدة ،دلك ان الثقافة القادرة على التكيف والنمو إنما هي وليدة الاتصالات الثقافية ولكن هؤلاء العلماء يذهبون أيضا إلى أن الإعلام غير المراقب والوارد من مجتمعات أخرى قد يقود إلى غزو فكري وبالتالي يقود إلى اضمحلال ثقافة المجتمع بعينه"[31]، قد كان للغرب وأعداء هذه الأمة اليد الطولى- إلى جانب العولمة "التي تشكل اتجاها واقعيا حتم على الكثير من الشعوب أن تحيا فيه، فهي واقع ليس لشعوب الارض خيار آخر ، وهذا الإخبار في الواقع المعيش عوّض حديث التفاؤل عن التعاون في قرية كونية إلى الحديث عن واقع ذي مستقبل مشوه وقد سموه: الاستعمار المعاكس"[32]- في انتشار هذه الظاهرة وغزوها لشريحة عريضة من أبناء هذه الأمة سعيا منه لضرب وحدتها، وقد ظفر ببعض مساعيه، ولكن إعجاز هذه اللغة وعظمتها التي يقر بها الغربي نفسه إفصاحا أو إشارة مكّنها من تجاوز هذه المؤامرة باعتراف بعض الدراسين أنفسهم منهم الأديب الاسباني كاميليو جوزيgozzysila camelioالحائز على جائزة نوبل حيث يتنبأ بموت لغات العالم وفق رؤية لسانية استشرافية ما عدا أربع منها وهي: العربية، الانجليزية، الإسبانية، والصينية.

ويطلق المختصون مصطلح "اللغات السامية" على عدة لغات منها العربية والعبرية والآرامية والآشورية والبابلية،..الخ، إلا أن هذا المصطلح لا يلقى رواجا كبيرا لدى كل الدارسين، فلم يفرد فهرس الموسوعة الإسلامية لهذه المفردة مكانة أو حيزا شأنها شأن المعجم اليوناني والمعجم اللاتيني، ...الخ، ولم يثبت لها وجود إلا في نهاية القرن الثامن عشر على يد العلامة الألماني شلوتزرSchlutzerالذي ابتكر اصطلاح "سامي" الذي لا يقربه أغلب الدارسين، ويفضل بعضهم استبدال المصطلح بكلمة لهجة عربية قديمة بدل اللغات السامية، فاللغة العربية الأم تفرعت عنها هذه اللهجات التي تعرف باللغات السامية، الكنعانية، والكلدانية، والحميرية والسبأية والبربرية الأمازيغية...وغيرها كثير، إلا أن أصل هذه اللغات على ما جرى في عرف الباحثين هو اللغة العربية الفصحى التي تكلم بها اسماعيل عليه السلام أبو العرب فهو أول من تحدث بها، فهل هذه اللغة هي نفسها لغة أهل الجنة ولغة القرآن الكريم ولغة آدم عليه السلام قبل وبعد أن نزل من الجنة التي توافق قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[33]

الوضع اللغوي بالمغرب العربي قبل الإسلام:

عرف المغرب العربي قبل الإسلام وضعا شبيها بالوضع بعده، فقد كانت اللهجة العربية الكنعانية والتي سميت بالفينيقية أو البونية تمثل اللغة الفصحى، إلى جانب لهجات شفوية عروبية هي اللهجات البربرية الأمازيغية، شكلت اللغة الكنعانية لغة المركز أي المدن (الحضر) ولغة الدواوين والعبادات، وبالرغم من أن الرومان قد دمروا الإمبراطورية الكنعانية قرطاج في 146 قبل الميلاد، إلا أن السكان الأصليين من المغاربة استمروا يمارسون الكنعانية كلغة فصحى "فالمنصب المسيحي المغاربي (الدوناتية) الذي أشتهر في القرن الرابع الميلادي كانت لغته الكنعانية.

كان الدوناتيون يصلون في كنائسهم بالكنعانية أي بالفينيقية، وكان الكاثوليك والقديس أوغستين يصلون باللاتينية لأن الكاثوليكية هي مذهب الرومان والاستعمار الروماني"[34]

وكان القديس أوغسطين يسمع أناسا في عنابة يتكلمون لغة غريبة فيسألهم ما هي هذه اللغة فيجيبون الكنعانية، وتقول موسوعة يونيفارساليس الفرنسية "صارت اللغة البونيقية اللغة المشتركة لا يتحدث بها القرطاجيون وحسب لكن يتكلم بها سائر سكان المدن، بل كانت لغة الملوك الأفارقة أنفسهم"[35]، يقول إرنست رينان E. renan إن ساميا عاش في عهد النبي إبراهيم وساميا عاش الآن لا يجد صعوبة في التفاهم بينهما، إن البربر حذقوا لغة الإسلام بسهولة لأنهم كانوا يعرفون البونيقية"[36].

والكنعانية أو البونيقية هي من اللغات السامية، أي لغة عربية قديمة كما سبق الإشارة إلى ذلك تماما كالأمازيغية، وعندما حمل الفتح الإسلامي معه اللغة العدنانية التي نزل بها القرآن الكريم خلفت هذه تلك بطريقة طبيعية، وهذا هو الذي يفسر لماذا انتشرت اللغة العربية بسرعة بالمغرب العربي، بينما عجز الرومان عن فرض لغتهم اللاتينية على المغاربة رغم استعمارهم الطويل.

وفي العهد الاستعماري الفرنسي ضُيق على اللغة العربية وحاول المستعمر طمس معالم الهوية الوطنية بدءا باللغة، فلجأ الجزائريون للتعبير عن احتياجاتهم ومقاومتهم للمحتل إلى العامية والشعر الملحون، واتسمت العامية قبل الاستقلال بالرقي فلم تكن مشوهة بعيدة عن الفصحى ولم يتسرب إليها التشويه والتشويش إلا بعد الاستقلال، بحيث صارت لهجة مسخا خليط غير متجانس من العربية والفرنسية، سمّاها اللّوبي الفرنكفوني المتحكم بزمام الحكم بـ:العربية الجزائرية وطالب بترسيمها بدل الفصحى كمحاولة لضرب الكيان العربي المسلم.

يكاد الريف الجزائري يسلم من التأثير الفرانكفوني بسبب بقائه بعيدا عن تلك المؤثرات، وهو ما جعل اللهجة الجزائرية أو العامية قريبة من الفصحى، وقد حملت في طياتها ولمدة قرون تلك الرغبة الجامحة في مقاومة الشعب للعدو فعبرت عن وجدان الأمة، وظلت في الفترات السابقة للاستقلال أنقى من الفترة التالية للاستقلال بسبب هيمنة اللغة الفرنسية على الإدارة والاقتصاد والعمل.

وتشذ العاصمة الجزائرية عن القاعدة المعروفة والتي مفادها أن لهجات العواصم تعد من أرقى اللهجات بالمقارنة مع المناطق الأخرى من البلاد، بحيث تصنف لهجة العاصمة الجزائرية ضمن أفقر لهجات الوطن ويرجع ذلك إلى معاناتها من الوجود التركي طيلة ثلاثة قرون ومن الاستيطان الفرنسي والأوروبي طيلة ما يزيد عن قرن ونصف القرن.

إن لغة التداول والاستعمار هي كل شعب وصورة الجزائر مع الأسف مشوه مرّقع، خليط غير متجانس بين العربية والفرنسية، ولا يكمن لهذه اللغة أن تخلو من الشوائب إلا إذا عممت اللغة العربية على كامل المستويات.

لقد شهد القرن العشرين أعظم ثورتين في تاريخ البشرية هما ثورة الجزائر وثورة الفيتنام، ولا يمكن لأي ثورة أن تكون ناجحة إلا إذا حققت هدفين: تحرير الأرض وتحرير الذات (الإنسان)، وقد نجحت ثورة الفيتنام في تحقيق الهدفين معا أما ثورة الجزائر فقد حققت الهدف الأول فحسب وظلّت الذات الجزائرية تابعة لمستعمرها بدءا باللغة كأعلى نقطة في الهرم التطوري وصولا إلى آخر نقطة من هذا الهرم في مختلف الأصعدة.

لا يمكن للعامية ولن تكون بديلا للفصحى، وإنما هي موضوع يكشف الدرس فيه عن جملة من الأسرار والخبايا التي يحملها الإرث المشترك من أمثال وزجل وغيرها مما هو جدير بالجمع والتحقيق وإعمال مقص المنتخب فيه.

إن العامية تعبر عن مستوى بسيط وظيفي أدائي وظيفي وآني ذو طابع محلي، يُلتجأ إليها بغية المؤانسة والمماثلة في الإطار المحلي المشترك، فهي لغة المشافهة في الحياة اليومية من أجل قضاء المصالح ، وتخضع للعوامل البيئية التي تنشأ فيها وتتطور وتشي بها، فقلة من ألفاظها فصيح صامد في وجه الزمن والكثير منها محرّف، وبعضها دخيل مترسب على مدار الزمن، وهناك مستويات للتخاطب العامي أولهما العامية السوقية وثانيهما العامية المهذّبة التي يوظفها المثقفون في مقامات تستدعي ذلك وفقا لمقتضى الحال وطبيعة الموضوع، وهي قسيم اللغة العربية لا ينبغي تجاهلها.

وقد مرّت العامية بمراحل وعوامل جعلتها تغير الكثير من خصائصها كمخارج الحروف فأبعدتها عن الأصل كنطق القاف كافا في منطقة جيجل والغزوات وطول كرم في فلسطين، ونطق الغين قافا في الأغواط وغيرها من اللهجات المنحدرة من القبائل العربية الفينيقية كاللهجة الظفارية اليمنية، وقد شهدت العامية عدة متغيرات بفعل الزمن، على اعتبار أنها نظام لغوي بسيط يتلقاه الفرد بفعل التقليد والترويض والتعليم، وهناك علاقة جامعة بين اللغة واللهجة، فاللغة هي "الكل واللهجة هي الجزء وتتحرك ضمن حدود أضيق من حدود اللغة" لقد ظهر الاهتمام بالعاميات في عصر النهضة العربية، وتجلى بقوة مع دعوات المستشرقين لدراسة اللهجات، حيث تنقلوا في البلاد العربية يصفون ويسجلون ويضعون تآليف وأطاليس لهجية خاصة يعملون على تدريسها وتدعيمها ماديا ومعنويا عن طريق إرساليات متتالية، فبعضهم له هدف علمي القصد

منه تصحيح العامية ودراسة المعّرب والدخيل، ورد الألفاظ التي طرأ عليها التريف، وبعضهم له غرض تدميري، وهو تفتيت الوحدة اللغوية للوطن العربي"[37]، وقد كان هذا دأب المستشرقين الذين سعوا إلى تكوين جيل بعيد عن مقوماته الروحية والعقائدية بتطبيق سياسة فرّق تسد و تفكيك النظام اللغوي الجامع لما يمكن أن يشكل تجزئة للأمة، وقد وجدت لهذه الدعاوي آذانا صاغية خاصة البعثات العلمية التي انقسمت إلى فريقين:

- فريق قصد من وراء اهتمامه باللهجات تهذيب الفصحى على اعتبار أنها سجل ثري يحتفظ بآثار اللغات القديمة، فللكلام الفصيح درجات أفصحه الفصحى وللعامية درجاتها أدناها السوقية وهي ترتيب تبعا لقربها أو بعدها عن الفصحى، وظهرت إلى جانب هذه الدعاوي ردود أخرى تدعو إلى رد السامية إلى أصولها الأولى المنبثقة عنها عن طريق عمليات التطهير عبر المجامع والمجالس العليا اللغوية حتى لا تنحرف قضايا البحث اللغوي عن مقاصدها....

- ولإسقاط ما سلف على الوضعية اللغوية في الجزائر فإن الجنوب الجزائري مثلا يتميز بتركيبته الاجتماعية التي عرفت تنوعا وتعددا مدهشا على مرّ السنين، ويرجع ذلك إلى الطبع الاقتصادي للمنطقة قديمها وحديثها، كونها همزة وصل تربط بين الشرق والغرب وطريقا للقوافل وقطبا تجاريا من جهة ومنطقة دولية من جهة أخرى.

ونظرا للأوضاع الحديثة والجديدة للمنطقة والتغيرات التي طرأت على البناء الاجتماعي للمنطقة، ظهرت عدة أداءات لسانية في العامية المشتركة بين أهاليها والتي تتميز بحيز واسع من التنوع اللهجي، الأمر الذي أدى إلى تغير لغة المعاملات اليومية بين الناس، مع توافد جماعات بشرية جديدة إلى المنطقة والتي أنشأت لغة واصطلاحات تتوافق مع احتياجاتها الخاصة، أضف إلى ذلك توالي الهجرات الداخلية من القرى والأرياف المجاورة نحو المدن الكبرى، مما أكسب التركيبة الاجتماعية تنوعا في الأصول والأعراف، ولا غرو أن هذا التنوع العرقي يلحقه تنوع لهجي شديد الاتساع.

وختاما نخلص إلى جملة من الوصايا التي نرغب في ترسيخها في الوسط الاجتماعي واللغوي من أجل الرقي بلغتنا الوطنية ومقوّمات الشخصية الجزائرية:

--العمل على تلقي الأمازيغية للنّاشئة وتعليمها سواء للناطقين بها أو غير الناطقين بها.

-تنظيم المحاضرات والنّدوات وحلقات البحث اللّغوية والعلمية وإحياء التّظاهرات الثّقافية من أجل النّهوض باللّغتين العربية والأمازيغية تثبيتا لها في النفوس والعقول وترسيخا لكيانها ووجودها لدى العام والخاص.

-هذه مسؤولية تقع على عاتق الجميع و كامل القوات الحيوية والفاعلة في المجتمع باعتبار أن لها أثرا بالغا في المحيط والإدارة والمجتمع وتعتبر قوة ضاغطة(قوة فرض، اقتراح أو رفض) على القرارات التي تتخذها السّلطة من أجل تحقيق التّكامل الثقافي المعرفي من أجل ترقية المجتمع والنهوض بأعبائه ومختلف انشغالاته.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

1. أحمد اوزي، اللغة الأم والتربية على القيم والمواطنة. مجلة علوم التربية. المغرب2008 . مجلة اللغة والتواصل التربوي والثقافي. مقاربة نفسية وتربوية.العدد13.
2. أحمد درويش: إنقاذ اللغة إنقاذ الهوية....تطوير اللغة العربية. شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.القاهرة.ط1.
3. أحمد دوزي: تاريخ اسبانيا الإسلامية، منشورات الأكاديمية،الرباط،2011،ج1
4. أحمد عصيد: الأمازيغية في خطاب الإسلام السياسي، مطبعة النجاح،ط2،الدار البيضاء،2000.
5. الأمن الثقافي واللغوي والانسجام الجمعي-أعمال اليوم الدراسي-منشورات المجلس الأعلى للغة العربية.2018.
6. ديدوح مراد :الصراع اللغوي: تأزم الهوية.wwww.almarefh.net بتاريخ2 -4-2013 17- .
7. رشيد حليم: دور العربية في عصر العولمة والمد الإعلامي، مجلة الدراسات اللغوية ،الجزائر،2007،العدد4.
8. صالح بلعيد، في المواطنة اللغوية وأشياء أخرى...دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2008، د ط، د.ت.
9. صالح بلعيد، في الهوية الوطنية وأشياء أخرى...دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر.2008.د.ط.د.ت.
10. عبد الجليل مرتاض: مقاربات أولية في علم اللهجات، دار الغرب للنشر والتوزيع،الجزائر،ط2، 2002.
11. عبد العزيز شرف : اللغة العربية والفكر المستقبلي. دار الجيل .بيروت .ط.1.1999.
12. عبد العزيز مطر: الأصالة العربية في لهجات الخليج، عالم الكتب الرياض، 1985،.
13. عبد الغني الود غيري: الهوية المغربية والمشكل اللغوي، مطبوعات الأكاديمية الملكية، المغرب، 1998، عدد ناقص بندوة، 1997، حول مستقبل الهوية العربية أمام التحديات المعاصرة.
14. العربية في خطر. مخبر الدراسات اللغوية في الجزائر. جامعة مولود معمري. كلية الآداب واللغات. تيزي وزو.2013.
15. عز الدين المناصرة، الهويات التعبيرية اللغوية، دار المجدلاوي للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2004.
16. فرديناند دي سوسير ، محاضرات في الألسنية العامة، تر يوسف غازي، مجيد النصر)
17. الفصحى وعامياتها لغة التخاطب بين التغريب والتهذيب، أعمال الندوة الدولية التي نظمت بالتعاون مع وزارة الثقافة ضمن فعاليات الجزائر عاصمة الثقافة العربية، 2007، يومي 04-05 ويونيو 2007، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية 2008.
18. ماريزلي: التعريب والجزائر، مقاربة سوسيوتاريخية (العربية، الفرنسية، الأمازيغية)، مجلة كتابات معاصرة، بيروت 2000، المجلد الحادي عشر العدد 42.
19. مجلة اللغة العربية، العدد42، الثلاثي الرابع،2018.
20. مختار العرباوي: مجلة المجلس الأعلى للغة العربية.الجزائر.2011.العدد25.

21. ياسين يملالي: اللغة الأمازيغية في الجزائر-بين مماطلة السلطة ولامبالاة النخب، بيروت، جريدة الأخبار،في29-11-2010.

22. dictionnaire de linguistique sous la direction de géorges mounin presse universitaire de france. 1974. Paris.

23. dictionnaire encyclopédique des sciences de langue. Oswaltducort. Tzvetan todrove. édition du seuil. 1972.

24. encyclopédie umiveralis.t.

25. - Calvet. Laguerre des langue.paris.1987.fergusson ch a.diaglossia.in world.vol15. -

26. - leviprovencal ;histoire de l'espagne musulmane.paris.1950.maubonneurve.t3.-

27. Renan histoire générale des langues sémtiques.7eme édition .2000.

28. - www.tasfiat arbia.org

الهوامش:

[1]عبد الجليل مرتاض: مقاربات أولية في علم اللهجات، دار الغرب للنشر والتوزيع،الجزائر،ط2002،2،ص11.

[2]-ينظر: أحمد درويش: إنقاذ اللغة إنقاذ الهوية....تطوير اللغة العربية .شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.القاهرة.ط1.ص17.

[3]-ينظر:ياسين يملالي:اللغة الأمازيغية في الجزائر-بين مماطلة السلطة ولامبالاة النخب،بيروت،جريدة الأخبار،في29-11-2010.

[4]-عبد العزيز مطر:الأصالة العربية في لهجات الخليج،عالم الكتب الرياض،1985،ص7.

[5]-أعمال اليوم الدراسي:الأمن الثقافي واللغوي والانسجام الجمعي،منشورات المجلس الأعلى للغة العربية2018.ص25.

[6]-مجلة اللغة العربية،العدد42،الثلاثي الرابع،2018،ص52.

[7]-أحمد دوزي: تاريخ اسبانيا الإسلامية، منشورات الأكاديمية،الرباط، 2011،ج1،ص156.

[8]-أحمد عصيد: الأمازيغية في خطاب الإسلام السياسي، مطبعة النجاح،ط2،الدار البيضاء،2000 ،ص31.

[9]- عز الدين المناصرة، الهويات التعبيرية اللغوية، دار المجدلاوي للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2004، ص222.

[10]- سورة الحجرات آية 13

[11]-سورة هود، الآية 118.

[12]- صالح بلعيد، في الهوية الوطنية وأشياء أخرى...دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر.2008.د.ط.د.ت.ص122.، ص44.

[13]-leviprovencal ;histoire de lespagne musulmane.paris.1950.maubonneurve.t3.p169.

[14]- عبد الغني الود غيري: الهوية المغربية والمشكل اللغوي، مطبوعات الأكاديمية الملكية، المغرب، 1998، عدد ناقص بندوة، 1997، حول مستقبل الهوية العربية أمام التحديات المعاصرة، ص150.

[15]-الأمن الثقافي واللغوي والانسجام الجمعي-أعمال اليوم الدراسي-منشورات المجلس الأعلى للغة العربية.2018.ص114.

13-أحمد اوزي،اللغة الأم والتربية على القيم والمواطنة.مجلة علوم التربية .المغرب2008 .مجلة اللغة والتواصل التربوي والثقافي.مقاربة نفسية وتربوية.العدد13.ص46.

[17]www.tasfiat arbia.org-جانفي 2011.

[18]- -. بتاريخ2 -4-2013 wwww.almarefh.net ديدوح مراد:الصراع اللغوي:تأزم الهوية.

[19]-العربية في خطر.مخبر الدراسات اللغوية في الجزائر.جامعة مولود معمري. كلية الآداب واللغات.تيزي وزو.2013.ص70.

[20]- ينظر:ماريزلي: التعريب والجزائر، مقاربة سوسيوتاريخية (العربية، الفرنسية، الأمازيغية)، مجلة كتابات معاصرة، بيروت 2000، المجلد الحادي عشر العدد 42، ص126.

[21]-.jlcalvet.laguerrrerre des langue.paris.1987.fergusson ch a.diaglossia.in world.vol15.p325-p346ينظر:

[22]-مختار العرباوي: مجلة المجلس الأعلى للغة العربية.الجزائر.2011.العدد25.ص25.

[23]-الامن الثقافي واللغوي والانسجام الجمعي ،منشورات المجلس الأعلى للغة العربية،2018،ص25.

[24]- ينظر: فرديناند دي سوسير ، محاضرات في الألسنية العامة، تر يوسف غازي، مجيد النصر، ص231-256)

[25]- المرجع نفسه، ص236-237.

[26]- المرجع نفسه، ص246.

[27]- dictonnaire encyclopédique des sience de langue. Oswaltducort. Tzvetantodrore. édition du seuil. 1972.p79.

[28]- dicticnnaire de linguistique sous la direction de géorgesmouninpressunversitaire de france. 1974. Paris. P106.

[29]-سورة الحجر.الآية 9.

[30]- الفصحى وعامياتها لغة التخاطب بين التغريب والتهذيب، أعمال الندوة الدولية التي نظمت بالتعاون مع وزارة الثقافة ضمن فعاليات الجزائر عاصمة الثقافة العربية، 2007، يومي 04-05 ويونيو 2007، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية 2008، ص107.

[31]-عبد العزيز شرف :اللغة العربية والفكر المستقبلي..دار الجيل .بيروت .ط.1.1999.ص333.

[32]-رشيد حليم: دور العربية في عصر العولمة والمد الإعلامي ،مجلة الدراسات اللغوية ،الجزائر،2007،العدد4،ص163.

[33] سورة البقرة، الاية: 31.

[34]- الفصحى وعامياتها، أعمال الندوة الدولية، ص109.

[35]- Encyclopeadia umiveralis.t. P633.

[36]- renanthistoire générale des langues sémtiques.7eme éclition p.p199.2000.

[37]- صالح بلعيد، في المواطنة اللغوية وأشياء أخرى...دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2008، د ط، د.ت، ص122.